المفارقات الزمنية في رواية" الشمعة والدهاليز" للطاهر وطار

الأستاذة: حيـــاة حجـــاز
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة قاصدي مرباح- ورقلة

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى:

الخوض في حداثة الرواية الجزائرية من خلال رواية الطاهر وطار" الشمعة والدهاليز" مسلطين الضوء على البنية الزمنية، حيث إن النزوع الحداثي اقتضى من الروائي أن يتحرر من كل ما يكبل الذهنية السردية، فحدث تحول صارخ على نظام البنية الزمنية قام من خلالها الروائي امتطاء ركب الحداثة بخرق أعراف السرد التقليدي والتسلسل المنطقي للأحداث، مما ولدّ ما يعرف بالمفارقات الزمنية التي كسر من خلالها خطية الزمن.

حاول الطاهر وطار من خلال" الشمعة والدهاليز" إعادة بناء معمارية الرواية الجزائرية بما يجاري واقع الأزمة الوطنية، واقع التشظي والانفلات من قبضة النظام.

مقدمة:

شكلت فتّرة التسعينيات نقلة نوعية في الكتابة الروائية الجزائرية، وصنعت لنفسها مكاناً للحاق بركب الرواية العربية؛ نقلة نوعية سببها الأساسي، أزمة عصفت بالبلاد والعباد دامت قرابة العشر سنوات، تنخر أجسامهم وعقولهم، وفي الوقت ذاته تلهم وتشعل قرائح الأدباء للكتابة بوعي جديد مسايراً لما تعيشه الجزائر، شمر الروائي على ساعديه وحمل لواء الكتابة بوعي جديد، وأنتج ما يعرف برواية الازمة؛ هذه الأخيرة التي تورطت مع الحياة الواقعية وانسلخت فيها لاستيعاب القضايا المستحدثة وتجاوز الأفكار المستهلكة، ومن المنطقي أن توسم هذه الكتابة الروائية الجديدة بسمات المرحلة ذاتها(الصراع الإديولوجي، التشظي الزمني، صراع الأجيال) والشمعة والدهاليز خير مثال على ذلك. ما مضمون

الرواية؟ وما لداعي لاختيار هذا العنوان؟ وكيف تجلت الحداثة السردية في رواية الطاهر وطار؟

- **ملخص الرواية:**

تستهل الرواية مجريات أحداثها باستيقاظ الشاعر على أصوات تعكر هدوء الليل وسكونه يتجه صوب الضجيج ليكشف كنهه وإذا بمجموعة من الشباب الملتحين يرددون(لا اله الا الله محمد رسول عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله) اكتسحت هذه العبارة فكر الشاعر وخنقت كيانه بوابل من الاسئلة هل يكون ضدهم ام يقف معهم؟ مردداً في قرارة نفسه العبارة ذاتها إذن استهل الشاعر روايته بأحداث العشرية السوداء لتسافر به ذاكرة الحنين الى الثورة ممتطياً تقنية الاسترجاع وتراكمات الماضي الحافل بإنجازاته(مساعدته للمجاهدين مند طفولته، التحاقه بالثانوية بقسنطينة بعد الاستقلال وتكوينه لصداقات لتكون منبع فكره الاشتراكي) وأثناء عودته يلتقي ببعض عناصر المجموعة ليحتك بهم فعليا من خلال حوارات واستفسارات ليكتشف محدودية فكرهم الديني وتعصبهم وتشددهم باستثناء شخصية عمار بن ياسر أمير المجموعة خريج جامعة. لتعود به الذاكرة الى فترة الاستقلال وما نتج عنها من انزياح عن المبادئ والقيم فقد الثقة حي في اقرب الناس اليه والده كما فقد عمار الثقة في مجموعته كيف نواصل المسير والحقيقة تجلت بعد سقوط الاقنعة الطاهر وطار ومن خلال روايته يعلج قضية شائكة قضية الصراع الدائر بين أطياف الشعب الواحد بين المتفرنسين والعرب المدافعين عن الهواية والدين، تناقض ولد انفجار وازمة التسعين ضد السلطة المتفرنسة ضد الحكم الأحادي، لتنتهي الأحداث بمقتل الشاعر من طرف مجموعة ملثمة بعد مراقبتهم له بسبب التقائه بزهيرة شمعة دهليزه.

- **قراءة في العنوان:**

يعد العنوان أول علامة لغوية تصافح بصر المتلقي وتقوده الى غياهب المتن الحكائي. والعنوان حسب رأي بعض النقاد" **مقطع لغوي أقل من الجملة يمثل نصاً أو عملاً فنياً ويمكن النظر إلي العنوان من زاويتين(أ) في السياق، (ب) خارج السياق**"[1]

اختار الطاهر وطار لروايته عنواناً يتركب من مفردتين يتوسطهما حرف عطف " الشمعة والدهاليز" الشمعة للدلالة عن الإضاءة والنور والتضحية إنها أسطورة العنقاء الذي يبعث من رماده تحترق لتضيء للأخرين طريقهم، والشمعة في الرواية الدين سبيل الرشاد

الوحيد القادر على إخراج الجزائر من هذه المحنة أما الدهاليز فعكس ذلك طريق مظلم ملتوي شبيه بالمغارة والكهف والمتاهة وجميعها تقاسم صفة الظلمة، الرعب والخوف، والمتمعن للعنوان يلحظ الثنائية الضدية شمعة مفردة للدلالة على النور ودهاليز جمع للدلالة على الظلام. شمعة ترادف جواباً واحداً ودهاليز يثير تساؤلات ومخاف. قد تكون الشمعة الجزائر الواحدة والدهاليز(الاستعمار، السلطة الإرهاب...) إذن هناك تطابق بين عنوان الرواية والمتن الروائي.

3- المفارقة الزمنية في الرواية:

الرواية سلسلة من الأحداث لا بد أن تسير وفق نسق ونظام معين يبدعه الراوي سواء كانت أحداث حقيقية أم من نسج خياله، ويستحيل بذلك مطابقة زمن القصة(المتن الحكائي) بزمن الخطاب السردي(المبنى الحكائي). وتُعد مقولة الزمن أحد أهم المقاولات التي شغلت فكر الإنسان فالزمن له مكانة مرموقة نظراً لموقعة داخل البنية السردية باعتباره أحد مكوناته،" **فالزمن يمثل محور الرواية وعمودها الفقري الذي يشيّد أجزائها... لأن الزمن وسيط الرواية، كما هو وسيط الحياة**"[2] ليس هذا فحسب وإنما" **يعمق الإحساس بالحدث والشخصيات لدى المتلقي**"[3]

3-1- أنواع الزمن: يميز الباحثون في الحكي بين ثلاث مستويات من الزمن.

أ- زمن القصة: وهو الزمن الخاص بالمتن الحكائي ويعرف بأنه" زمن وقوع الأحداث المروية في القصة فلكل قصة بداية، ونهاية، ويخضع زمن القصة للتتابع المنطقي فالقصة هي المادة الحكائية(الخام) للرواية وهو العالم الذي يقدمه النص الروائي في صورة أحداث متتالية ذات زمن خطي، وشخصيات، ومكان وزمان والتي منها يحقق العمل الحكائي تواجده. هذا العالم القصصي قد يشابه العالم الواقعي أو يختلف عنه"[4]

ب- زمن الخطاب: ويعرف بزمن السرد وزمن المبنى الحكائي والكتابة ويرتبط بعملية صيرورة التلفيظ القائم بداخل النص وفق المفهوم السردي فإن الخطاب الروائي" **يحتوي على(مادة) كوسيط للإظهار شفاهي أو مكتوب، وشكل يتألف من مجموعة من التقارير السردية التي تقدم القصة، وبشكل أدق تتحكم في تقديم تتابع المواقف والوقائع ووجهة النظر التي تحكم هذا التقديم وإيقاع السرد**"[5]

ج- زمن القراءة: وهو الزمن الضروري لقراءة النص أي" **الزمن الذي يصاحب القارئ وهو يقرأ العمل السردي**"[6] إذن لكل زمن خصوصيته وهذا ما اوضحه حسن بحراوي في قوله:" **وأفترض أن مدة هذه الأزمنة تتقلص تدريجياً بين الواحد والآخر، فالكاتب مثلاً يقدم خلاصة وجيزة لأحداث وقعت في سنين ربما قد استغرق في كتابتها ساعتين بينما يستطيع قرائتها في دقيقتين**"[7] إذن نستنتج مما سبق أن للزمن علاقة تلازمية وثيقة بالعمل الروائي لذا عدّ ركناً من أركانها الأساس بأنواعها المعروفة.

مالمقصود بالمفارقات الزمنية؟

عدم تطابق زمن المتن الحكائي مع المبنى الحكائي يولد مايعرف بـــ" المفارقة الزمنية" وهو:" **مصطلح عام للدلالة على كل أشكال التنافر بين الترتيبيين الزمنيين الترتيب الزمني للقصة، والترتيب الزمني للحكاية**"[8] أي عند مخالفة زمن السرد وترتيب أحداث القصة سواء أكانت بالتقديم أو التأخير تتشكل المفارقة وهي تقنية يعتمدها السارد لسدّ الفجوة لدى المتلقي أو لتشويقه بتأجيلها والمفارقة نوعان:

1- **الاسترجاع: أو فلاش باك** يتمثل الاسترجاع في توقف مسار سير أحداث القصة ليعود السارد لاستحضار أحداث ماضية يقول حسن البحراوي:" **إن كل عودة للماضي تشكل بالنسبة للسرد استذكاراُ يقوم به لماضيه الخاص، ويحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة**"[9] ويعرفه عبد المالك مرتاض بقوله:" **هو معنى دال على الرجوع إلى الوراء بالضرورة، إذ الارتداد لا يجوز أن يكون إلا نحو الوراء وليس له أي معنى على التقدم أو المضي نحو الأمام**"[10] وغالبا يتم استدعائه" **لتوظيفه بنائياً عن طريق الاستذكارات التي تأتي دائماً لتلبية بواعث جمالية وفنية خالصة في النص الروائي**"[11] بعد وضع تعريف للاسترجاع سنحاول استخراج بعض النماذج في محاولتنا ملامسة الحداثة في رواية" الشمعة والدهاليز"

-النماذج: الشمعة والدهاليز رواية يحاصرها الاستذكار من كل جانب إذ يعود الراوي بالأحداث إلى الوراء لكي يقدم لنا صورة أو حلقة مفقودة عن أحداث لم نكن على دراية بها لولا الارتداد إلى الزمن الماضي وليس بالضرورة سردها بالتفصيل وإنما الإشارة إليها لسد فجوة لدى القارئ من أمثلة ذلك:(**لم تكن المدافع، لا، لا حتى الدبابات ومزنجزات كما جرت العادة منذ سنتين أو يزيد**)[12] استرجاع داخلي متوسط المدي(سنتين) سعته سطر.

وفي قوله:(**اللحن يعرفه جيداً كما يعرفه الشعب الجزائري كله، فقد ظل طيلة هذه السنوات ينبعث من كل ساحات الجزائر من ألاف الحناجر أصحابها في حالة ودر صوفي متناه**)[13] استرجاع مزجي طويل المدى سعته سطرين. حاول من خلاله وطار استذكار الثورة التحريرية والمظاهرات التي كانت تقام في ساحات الجزائر كمظاهرات 8 ماي، ومظاهرات 11 ديسمبر 1960، وهاهي اليوم تستيقظ عل وقع مظاهرات 5 أكتوبر 1988 وفي قوله:(**الشعب الجزائري ومنذ عهد الأتراك الذين فرضوا عليه ان لا يتعدى حدود الإنسان المزارع**) [14] ويضيف قائلاً:(**كل ما هناك، بقايا جدران تشكل عمارات متصاقبة أو متقابلة، تشكل في مجموعها مدينة هجرها سكانها من الفرنسيين واليهود والإسبان والملطيين**)[15] وقول في موضع آخر:(**الشعب الجزائري ليس له سلاح ثقافي سوى دينه، به استعان الأمير عبد القادر... به استعان الفلاحون الفقراء خلف دوناتيوس الرومان**)[16] وفي قوله:(**لقد كان المغرب الأوسط باستمرار، يحقق المستعصيات. الخوارج لم يستطيعوا إقامة دولة إلا هنا، فكانت الدولة الرستمية، والشيعة لم ينجزو حلمهم إلا هنا، فكانت الدولة الفاطمية**)[17] ليعود الي زمن الاستعمار في قوله:(**غادر الكبار المنازل، بعضهم في الليل، قاصدين الجبال ملتحقين بالثورة، وبعضهم أخد عنوة في النهار إلى السجون والمنافي والمحتشدات**)[18] يعد تاريخ الجزائر تاريخ حافل بالحضارات المتعاقبة بدأ بالمملكة النومدية في القرن الثالث قبل الميلاد وقد أشار اليها وطار بذكر شخصية دوناتيوس أمازيغي الأصل والمدافع عن كرامة البربر ضد التواجد الروماني في المنطقة، لينتقل الى التواجد العثماني خلال القرن السادس عشر بعد الاستنجاد بالاخوة بربروس، ليستدرك الحلقة المفقودة ونقصد به مرحلة الاحتلال السباني، ويعود ذلك الى سقوط غرناطة اخر مماليك الأندلس، سنة 1492م، لينتقل الى تاريخ الدولة الجزائرية الحديثة، بذكر شخصية الأمير عبد القادر، ثم يجره الاسترجاع إلى عصر الفتوحات الإسلامية بالتطرق الى الدولة الرستمية 777م، ومؤسسها عبد الرحمان بن رستم، ثم الفاطمية سنة 909م بحتلالها تهارت عاصمة الدولة الرستمية، ويواصل مسيرته الارتدادية ذات المدى الطويل والسعة الاطول بتطرقه الى الاحتلال الفرنسي وجرائمه.

ما نلاحظه أن الطاهر وطار لم يحترم حتى التسلسل الكرونولوجي الواقعي لقيام الدولة الجزائرية هذا إن دل على شيء فإنما يدل على ان الجزائر تعيش مرحلة شرخ

وتشظي. **ويؤكد وقوع الأحداث في زمن سابق في قوله:(بالتأكيد إن زمن ما يحدث حالياً، ابتدأ قبل الآن، ولربما قبل الليلة... زمن ما يجري في المدينة، وثبت طويلة شرع فيها منذ وقت بعيد)** والاسترجاعات كثيرة لايسع المقام لذكرها.

2- الاستشارف(الاستباق): وقوع الأحداث قبل أوانها، وهو تقنية من تقنيات المفارقة الزمنية وفيها يقوم الكاتب بالتطلع إلى المستقبل وما هو متوقع الحدوث." **تعمل هذه الاستشرافات على تمهيد أو توطئة لأحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من طرف الراوي فتكون غايتها في هذه الحالة هي حمل القارئ على توقع حادث ما أو التكهن بمستقبل إحدى الشخصيات(...) كما أنها قد تأتي على شكل إعلان عمّا ستؤول إليه مصائر الشخصيات)**[19]

- النمادج:

(الانسانية في ظلمها الأخيرة، والظلم أيها الأخ الكريم، هي الليالي الثلاث من القمر وشمعتها واحدة، في انتظار الهلال من جديد هي الإسلام، إذا قامت دولته فستقوم في كامل المنطقة)[20] استشراف تمهيدي عن قيام الدولة الإسلامية في الجزائر، وفي معرض آخر يقول:**(استعادوا اللباس الذي انتزعه آبائهم، كما استعادوا الشوارب واللحى، التي حلقوها قبل الميعاد وتوجهوا إلى السادة يحدقون في أعينهم وطالبون منهم بصرامة وإصرار التنحي)**[21] احتجاجات 5 أكتوبر1988 كانت احتجاجات سلمية مطالبة بتحسين الأوضاع الاقتصادية لكن سرعان ما انتقلت المطالب الى التنحي عن الحكم وإقامة جمهورية إسلامية، أما في النموذج الآتي فقد جمع بين الاسترجاع والاستباق في قوله:**(يوم دخلت الجامعة، كانت الجزائر بين المنزلتين، رئيس راحل ملايين تبكيه وملايين تنهش عرضه، وبين رئيس قادم يقدح في الرئيس السابق، ويستسلم لقدح الناس وانتقاداتهم بما فيهم الأطر التي يعتمد عليها)**[22] وطار يتنبأ بمستقبل الرئيس القادم للجزائر ووزراءه**(لقد قتلت الخيزران الأم البربرية ابناً لها لتولي ابنا آخر على رأس الحكم هارون الرشيد إنما جاء محمولا على ذراعي امه ملطخة اليدين بالدماء)**[23] الخيزران هنا تعني الجزائر والتي ستنصب رئيساً جديدًا بعد مقتل الرئيس محمد بوضياف.

الهوامش:

1 محمد فكري الجزار: العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، (د،ط)، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1998، ص 20.

2 مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص 23.

3 محمد بوعزة، تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم، الدار العربية للعلوم، الرباط، المغرب، ط1، 2010، ص 87.

4 لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 113.

5 جيرالد برنس، المصطلح السردي، تر: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص 62.

6 عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، ط1، 1998، ص 180.

7 بتور نقلاً عن: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص 114.

8 جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر: محمد معتصم عبد الجليل الأزدي، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 1997، ص 51.

9 حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي(الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص 121.

10 عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، ص 217.

11 حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 121.

12 الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، منشورات التبيين، سلسلة الابداع الفني، ط1، 1995، ص 8.

13 المرجع نفسه، ص 8.

14 المرجع نفسه، ص16.

15 المرجع نفسه، ص17.

16 المرجع نفسه، ص 17.
17 المرجع نفسه، ص 23.
18 المرجع نفسه، ص 27.
19 حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 132.
20 الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص
21 المرجع نفسه، ص 17.
22 المرجع نفسه، ص 73.
23 المرجع نفسه، ص 81.